الفصل الرابع

إقامة الدولة

تمهيد:

من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم: وصول أهل التوحيد والإيمان الصحيح إلى سدة الحكم، وتوليهم لمقاليد الدولة، لقد تحدث القرآن الكريم عمَّن قادوا دولاً وساسوا شعوباً بشرع الله، من أمثال داود وسليمان عليهما السلام والحاكم المؤمن والفاتح الصالح، والقائد العادل ـ ذو القرنين ـ وجعلهم قدوة ومثلاً رائعاً لأهل الإيمان على مر الدهور وكر العصور، وتوالي الأزمان، وسلط القرآن الكريم الأضواء على جوانب هامة من أعمالهم وجهادهم العظيم الذي استهدفوا به التمكين لمثل عليا، ومبادئ رفيعة، وقيم سامية، وأخلاق فاضلة انبثقت من الإيمان بالله واليوم الآخر، بعيدة كل البعد عن الكبرياء والوطنية، والأمجاد القومية، والنزعات العرقية، وتقديس التراب والزعماء، ولم تكن فتوحاتهم وأعمالهم المجيدة تستهدف سيادة عسكرية، أو مغانم اقتصادية، أو تطلعات توسعية، أو نزوات عنصرية والتي يبعث عليها حب التسلط والرغبة في العلو.

إنما خاضوا حروباً وقادوا جيوشاً استهدفت كرامة الإنسان، وتخليصه من الشرك والأوهام، والانحرافات العقدية، وإزالة الظلم عن البشر، وإقامة العدل، ودعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة، والمنهج السليم، والتصور الرباني.

وكان للنبيّ ﷺ والخلفاء من بعده حظ وافر من هذا النوع من التمكين نحاول أن نسلط الأضواء في هذا الفصل على بعض معالمه، وسنعرج على التاريخ الإسلامي القديم والحديث لنضرب بعض الأمثلة الحية بإذن الله تعالى لنستخرج الدروس والعبر من هذه الدراسة المتواضعة.

المبحث الأول

تمكين الله تعالى لداود وسليمان عليهما السلام

أولاً: داود عليه السلام:

يبدأ العصر الذهبي لبني إسرائيل مع ظهور داود عليه السلام في القتال، عندما أكرمه الله تعالى بقتل جالوت وبَيَّن القرآن الكريم أن داود عليه السلام كان مجاهداً في جيش طالوت، وممن نجحوا في الامتحان العسير الذي قرّر رئيس الجيش أن يخوضه جميع جنوده فسقط من سقط ونجح من نجح.

لقد رفع داود عليه السلام راية النصر، وشرع في إعادة التمكين لبني إسرائيل بعد قتله لجالوت، وكان إذ ذاك فتى، وتم له الظفر، فالتقت على محبته القلوب، وتأكدت له أواصر الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديث بني إسرائيل، يكنون له في نفوسهم الاحترام والمحبة والتوقير، ومنذ ذلك الحين بدا نجمه يصعد في السماء ويتنقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئه النصر يتبعه النصر، حتى ولي الملك أخيراً، وأصبح ذا سلطان وظهرت ملامح الحكم في زمنه في عدله وحكمه، وكان أوّاباً رجاعاً إلى ربه بالطاعة، والعبادة، والذكر والاستغفار.

لقد كان منهج التغيير في زمن داود عليه السلام هو الصراع المسلح بين قوى الخير والشر، والإيمان والكفر، والهدى والضلال، وبالفعل تم دمغ الباطل وإضعافه ووصل بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم.

إن داود عليه السلام شدّ ملكه بالتسبيح والذكر والطاعة، فكان عليه السلام يسبح بالعشي والإشراق وتجاوبت الجبال مع ذكره العذب الجميل وكذلك تجاوبت الطيور، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18]. فوهبه الله هبة عظمى ذكرها في كتابه ﷻ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: 20] الذي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع الملوك العظماء، بحيث لا يتمكن منه أعداؤه لكثرة جيوشه، وكثافة

حراسه الذين قيل: إنهم كانوا ألوفاً كثيرة يتناوبون في حراسته، ولم ينكسر له جيش في معركة أبداً بعون الله ونصره[1].

قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: 17].

أ ـ إن المتأمل في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرف على صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له وهي تحقق للقائد المصلح كمال السعادة في الدنيا والآخرة. ومن أهم هذه الصفات:

1 ـ الصبر: فقد أمر الله تعالى نبينا محمد ﷺ على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله.

2 ـ العبودية: فقد وصفه ربه بقوله ﴿عَبۡدَنَا﴾ وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم، والوصف بالعبودية لله غاية التشريف، كوصف محمد ﷺ بها ليلة المعراج: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1].

وكان النبيّ ﷺ إذا ذكر داود عليه السلام وحدث عنه بيَّن فضله واجتهاده في العبادة، قال: «**إن أحب الصيام إلى الله صيام داود. وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود** عليه السلام . **كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً**»[2].

3 ـ القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي في قوله ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ...﴾.

4 ـ والرجّاع إلى الله بالطاعة في أموره كلها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾. وصف بالقوة على طاعة الله وبأنه أواب دليل على كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح.

5 ـ تسبيح الجبال والطيور معه﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾ [ص: 18 ـ 19].

أي إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال عز وجل: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ [سبأ: 10].

قال ابن كثير: «وكذلك الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه إذا مر به الطير، وهو سابح

(1) انظر: تفسير القرطبي (15/ 162).

(2) مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (2/ 816) رقم (189).

في الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لايستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له»[1].

6 ـ قوة الملك: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: 20]. أي قوينا ملكه بالجند أو الحرس، وجعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

7 ـ الحكمة: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [ص: 20]. أعطيناه الفهم والعقل والفطنة، والعلم، والعدل، وإتقان العمل، والحكم بالصواب.

8 ـ حسن الفصل في الخصومات: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: 20]. أي وألهمناه حسن الفصل في القضاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإيجاز البيان، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل[2].

وكان من الطبيعي في سنن الله تعالى أن يتعرض داود عليه السلام للفتنة والابتلاء وكانت عين الله ترعاه، وتقود خطاه وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه، وتحميه من خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه، قال تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 21 ـ 24].

وبيان هذه الفتنة أن داود النبيّ الملك، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً لله في المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه حتى يخرج إلى الناس.

وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوّران المحراب المُغلق عليه ففزع منهم، قالوا: لا تخف نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، وجئنا للتقاضي أمامك، ونطلب منك أن تحكم بالحق والعدل وتبتعد عن الشطط وتدلنا على الصواب، وبدأ أحدهما فعرض خصومته بطريقة توحي بأن أحدهما وقع في ظلم صارخ، فاندفع داود عليه السلام دون السماع إلى حجة الخصم الآخر وأصدر حكمه، وبعد الانتهاء من إصدار الحكم تنبه داود عليه السلام إلى أنه لم يتثبت،

(1) تفسير ابن كثير (4/ 29).

(2) انظر: تفسير المنير لوهبة الزحيلي (23/ 183 ـ 185).

فربما كان صاحب النعجة الواحدة هو الظالم، فأيقن أن الحادثة اختبار من الله تعالى فرجع إلى طبيعته، واستغفر ربه، وخرّ راكعاً وأناب[1].

لقد خاضت بعض التفاسير في هذه الحادثة بسبب التأثر بالإسرائيليات ونسبت لداود عليه السلام ما يتنافى مع عصمته عليه.

إن علماء أهل السنة يجمعون على أن الأنبياء معصومون عن الكبائر[2].

وقد ذكر العلامة السعدي ـ رحمه الله ـ فوائد عظيمة وحكم جزيلة من قصة داود عليه السلام فقال:

1 ـ ومنها: أي من الفوائد: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل يفتنهم إياه، وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود عليه السلام.

2 ـ ومنها: إن الأنبياء معصومون من الخطإ فيما يبلغون عن الله تعالى؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك.

3 ـ ومنها: إن داود عليه السلام، كان في أغلب أحواله ملازماً محرابه لخدمة ربه؛ ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه، لا يأتيه أحد. فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام. بل جعل له وقتاً يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

4 ـ ومنها: إنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم. فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة، ومن غير الباب المعهود، فزع منهم واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

5 ـ إنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

6 ـ ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما، حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

7 ـ ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو: يا ظالم أو باغ عليَّ ونحو ذلك لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

---

(1) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن (4/ 35، 36).

(2) انظر: تفسير المنير (23/ 190).

8 ـ ومنها: إن الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لايغضب، ولايشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر.

9 ـ ومنها: إن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وإنه لا يرد عن ذلك، إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح.

10 ـ ومنها: إن الاستغفار والعبادة ـ خصوصاً الصلاة ـ مكفرات للذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود، على استغفاره وسجوده[1].

ب ـ استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

خاطب الله تعالى داود عليه السلام بأن جعله حاكماً بين الناس في الأرض، فله الحكم والسلطة، وعليهم السمع والطاعة، ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم تعليماً لغيره من الناس:

1 ـ ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي فاقض بين الناس بالعدل، الذي قامت به السموات والأرض. وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

2 ـ ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار؛ لذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال، والانحراف عن جادة الحق، وعاقبته الخذلان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل لهم عقاب شديد يوم القيامة، والحساب الآخروي بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب شديد دقيق لكل إنسان، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم، ومنه القضاء بالعدل.

والعبرة من هذا الموضوع: الوصية من الله ـ عز وجل ـ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس

(1) انظر. تفسير السعدي الذي اختصر في مجلد، ص 559، 560.

بالحق، ولا يحيدوا عنه، فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد الله من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والحساب الشديد[1].

إن الآية الكريمة تبين أن الحكم بين الناس، مرتبة دينية، تولاها رسل الله، وخواص خلقه. وإن وظيفة القائم بها الحكم بالحق، ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه، وتبين كذلك أن الحاكم ينبغي له أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه. بل يجاهد نفسه، بأن يكون الحق مقصوده[2].

جـ - هبة من الله تعالى مباركة وفتح وإلهام:

إن داود عليه السلام كان له كثير من الأبناء والأولاد إلا أن الله خصه بالابن الصالح النبيّ الملك سليمان عليه السلام، وأثنى الله عليه في كتابه بكونه أواباً إلى الله - عز وجل - كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله - عز وجل - في أكثر الأوقات، ومن مزيد فضل الله على عبده داود أن وهبه سليمان الذي ورث عن أبيه الملك والنبوة.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30].

لقد أكرم الله تعالى سليمان عليه السلام بالملك والنبوة وأعطاه الفهم الثاقب، والرأي السديد، ورجاحة العقل.

ومما يدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: 78 - 79]

إن الآيات الكريمة تبين قصة زرع رعته ليلاً غنم لآخرين، وكان الله عليماً شاهداً بما حكم به داود وسليمان، لا تخفى عليه خافية، ولكنه تعالى أفهم سليمان القضية، والحكومة، والفتوى الصحيحة الراجحة فكان رأيه هو الأصوب، مع أنه سبحانه آتى كلاً من داود وسليمان النبوة وحسن الفصل في الخصومات، والعلم، والفهم، والإدراك السليم للأمور، مما يدل على إقرار الحكمين في الجملة، وعلى أن خطأ المجتهد لايقدح فيه، وإن كان الصواب

(1) انظر: تفسير المنير (23/ 188).

(2) انظر: تفسير السعدي الذي اختصر في مجلد، ص 66.

واحداً، وهو ما قضى به سليمان، ودل قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ على إظهار ما تفضل الله عليه به في صغره[1].

لقد استنبط العلماء من هذه الآيات كثيراً من المسائل المهمة نذكر بعضها:

1 ـ في هذه الآية دليل على جواز رجوع القاضي عما حكم به، إذا تبين له أن الحق في غيره، فقد رجع داود إلى حكم سليمان عليهما السلام.

2 ـ يرى كثير من الفقهاء أن الحق واحد في أقوال المجتهدين، وليس الحق أو الصواب في جميع أقوالهم، بدليل قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ فخصَّ سليمان بالفهم ولو كان الكل مصيباً لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة[2].

د ـ ابتكار في صناعة الاسلحة:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80].

كان داود عليه السلام أول من اتخذ الدروع وصنعها، وتعلمها الناس منه، وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلقها، فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين على الدوام أبد الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة.

وذلك يقتضي الشكر؛ لذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80] أي على تيسير نعمة الدروع لكم، وأن تطيعوا رسول الله فيما أمر به. والمراد: اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه النعمة.

وهذه الآية دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة، وهذه الآية فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع والأخذ بأسباب النصر على الأعداء، ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن، وشريعة الديان.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: 10 ـ 11].

---

(1) انظر: تفسير المنير (17/ 106).

(2) المصدر نفسه (17/ 105).

وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص. إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذي هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شك في خطورة مادة الحديد في صناعة الحضارات وبناء الدول، وفي حسم انتصارات الجيوش.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: «وفي سورة الحديد نقرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]. سورة الحديد؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها؟ هل ثمة ما هو أكثر إقناعاً لنزعة التحضير والإبداع والبناء، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكياته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد (البأس الشديد) متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري، و(المنافع) التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه (السلميّ)؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن، في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرباً؟

إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل... وتستطيع ـ أيضاً ـ أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها»[1].

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منح الحديد لداود عليه السلام وعلمه كيف يلينه؛ لأن الفائدة تتحقق بوجود الخام والقدرة على تشكيله، ولا شك أن ذلك ساعد على بناء حضارة عظيمة جمعت بين المنهج الرباني والتطور العمراني والصناعي... إلخ.

وإذا تأملنا في آية الحديد نجد تداخلاً عميقاً وارتباطاً صميماً بين آية الحديد، وإرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته (البأس)، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25].

(1) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 221، 222.

إن المسلم الرباني لن تحميه بعد قدرة الله إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتشكله وتستخدمه من أجل حماية العقيدة والتقدم بهذا الدين، وتحقيق النصر للمؤمنين، وإقامة دولة تحكمها شريعة رب العالمين، إن قول الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: 10] فيه إشارة إلى أهمية هذا الخام وتوظيفه لخدمة الإسلام.

ثانياً: فقه التمكين عند سليمان عليه السلام:

تسلّم سليمان عليه السلام قيادة الدولة القوية التي أسست على الإيمان والتوحيد وتقوى الله تعالى، لقد أوتي سليمان عليه السلام الملك الواسع والسلطان العظيم بحيث لم يؤت أحد مثلما أوتي، ولكنه أعطي قبل ذلك عطاء أعظم وأكرم، هيأه لأن يكون شخصية فريدة متميزة في التاريخ، لقد أعطي النبوة، ومنح العلم وأوتي الحكمة، وذلك مثلما أعطي أبوه من قبل. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 15 ـ 16].

إن سليمان عليه السلام لم يرث عن أبيه مالاً أو داراً أو عقاراً وإنما ورث عنه العلم والحكمة وورث النبوة والحكم وأعطاه الله تعالى نعماً وهبات خاصة به لم يعطها أحداً بعده فقد سأل الله ـ عز وجل ـ أن يخصه بعطاء لا يصل إليه أحد وقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: 35] يعني أعطني ملكاً لا يكون لأحد من البشر من بعدي مثله[1].

وإننا ـ ونحن نمضي مع ما يحكيه القرآن عن سليمان عليه السلام ـ فإننا نعيش مع أنصع الصفحات المشرقة عن عصور بني إسرائيل الذهبية أيام كانوا على الدين الصحيح.

يحدثنا القرآن أنه عليه السلام أقام مملكته على أسس من الإيمان بالله والإسلام له؛ ولهذا اعتبر سليمان ملكه مفخرة عن ملك بلقيس ليس لامتداده وسعته وتفوقه فحسب، ولكن لأن ملك سليمان قام على العلم وأسس على الإيمان فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: 42 ـ 43]

وإننا لنلمح من خلال القرآن أن دولة سليمان عليه السلام كانت مفعمة بالحيوية، مائجة

(1) تفسير ابن كثير (4/ 40).

بالحركة، وكان عليه السلام قائماً بواجب العبودية إلى جانب القيام بمهام الملك ومسؤوليات الحكام إعمار الدنيا بطاعة الله، حتى دانت له الأرض جميعاً وجاء على المعمورة وقت لم يكن فيها لسليمان ندٌ منازع في الحكم والملك ولاشبيه مماثل في العلم والحكمة.

لقد تحدثت الآيات الكريمة عن صفات وأحوال سليمان الحكيم، فهي صفات وأحوال تحكي مواقف حاكم مسؤول عن إدارة شؤون الأرض، لما عليها من مخلوقات، فهل كانت هذه المسؤوليات الهائلة التي لا تكاد تتصور في عصرنا، هل كانت عقبة أمام سليمان في سلك المنهاج القيم للحكم، والطريق الناجح في الإدارة؟ بالقطع لا، بل كان عليه السلام يدير هذه المملكة الشاسعة أحسن ما يدير الفرد شؤونه مع أسرته في بيته الصغير.

ومن خلال هذا السياق القرآني لسيرة سيدنا سليمان عليه السلام نستخلص دروساً وعبراً في كيفية المحافظة على دولة الإيمان وما وسائل قوتها، وما وظائفها في هذه الحياة؟

إن قصة سليمان عليه السلام وردت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، في سور: النمل، وصّ، وسبأ، وكانت الآيات الكريمة في سورة النمل تتحدث عن حلقة من حلقات حياة سليمان عليه السلام: حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ يمهد لها السياق القرآني بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير، وإعطائه من كل شيء، وشكره لله على فضله المبين. ثم مشهد موكبه من الجن والإنس، والطير، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله، وإدراكه أن النعمة ابتلاء، وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء. لقد أشارت الآيات الكريمة إلى بداية التمكين، ومظاهر التمكين، وكيفية المحافظة على التمكين، وصفات القيادة الربانية الممكن لها:

أ ـ بداية التمكين:

بدا التمكين بتلك الإشارة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ...﴾ وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، فتبرز قيمة العلم، وعظمة المنة به من الله على العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين، ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه؛ لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار. وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه، فلا يكون العلم مُبعداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه، وهو بعض مننه وعطاياه وبعد الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها، يفرد سليمان

بالحديث: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: 16]

ب ـ مظاهر التمكين في دولة سليمان عليه السلام

إن الله تعالى أنعم على عبده داود عليه السلام بالنبوة والملك، ثم ورثه ابنه سليمان عليه السلام ومكن الله له من الملك والدولة وأعطاه من النعائم ومظاهر الملك والعز والسلطة بحيث لا ينبغي لأحد من بعده أن يصل إلى ما وصل إليه قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 12 ـ 13].

ومن خلال الآيات السابقة في سورة النمل وهذه الآيات التي في سورة سبأ يمكننا أن نلخص مظاهر التمكين لسليمان عليه السلام في الآتي:

1 ـ ورّثه الله الملك عن أبيه كما أعطاه النبوة، فكان ملكاً جمع الشرفين: النبوة والملك.

2 ـ علّمه الله منطق الطير وأعطاه قدرة التحدث مع مخلوقات الله، مثل: النمل قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: 16].

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: 18 ـ 19].

3 ـ آتاه الله الحكمة على حداثة سنه، ويشهد لذلك ما أوردنا من بعض القصص التي حكم فيها بحكم أقره القرآن الكريم عليه، قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: 78 ـ 79].

4 ـ سخر الله تعالى له الريح فكانت تنقله إلى أي أطراف الدنيا شاء، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة في ساعات معدودات قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ...﴾

[سبأ: 12] «والمعنى أنها تقطع به من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر، ومن الظهر إلى المساء مسيرة شهر، فتقطع به في النهار الواحد مسيرة شهرين، وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها، يدركها سليمان، ويحققها أمر الله...»[1].

5 ـ سخر الله تعالى له الجن ومردة الشياطين، يغوصون له في البحار لاستخراج الجواهر واللآلئ، ويعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر كبناء القصور العالية والمحاريب في أماكن العبادة، والتماثيل: الصور من نحاس وخشب وغيره. والجوابي: جمع جابية وهي الحوض الذي نجبي به الماء، وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابي، وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 12 ـ 13].

6 ـ أسال الله له عين القطر ـ وهو النحاس المذاب ـ فكان النحاس يتدفق له مذاباً من عين خاصة كتدفق الماء، فيصنع منه ما شاء، قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ﴾ [سبأ: 12].

وكان النحاس وقتها عنصر الحضارة ومادة التقدم ومظهر الأبهة والعظمة في الجيوش والحراسات والبنايات. وظل سليمان عليه السلام ـ الملك الجاد ـ يسعى في إعمار الدنيا بطاعة الله، حتى دانت له الأرض جميعاً وجاء على المعمورة وقت لم يكن فيها لسليمان ندٌ في الحكم والملك ولاشبيه مماثل في العلم والحكمة[2].

7 ـ كان جنده مؤلفاً من الإنس والجن والطير، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب لهم شؤونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل، يحيط به الجند والخدم من كل جانب، فالإنس والجن يسيرون معه في موكب حافل، والطير تظله بأجنحتها من الحر والشمس[3].

هذه هي أبرز مظاهر التمكين في زمن حكم سليمان عليه السلام ويظهر إكرام الله له في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 39].

وذلك زيادة في الإكرام والمنة. ثم زاد على هذا كله أن له عند ربه قُربى في الدنيا وحسن مآب في الآخرة: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: 40].

---

(1) في ظلال القرآن (5/ 2898).

(2) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 587).

(3) انظر: دعوة سليمان عليه السلام ص 55، 56.

جـ ـ فقه سليمان عليه السلام في إدارة الدولة:

إن القصص القرآني في سيرة سليمان عليه السلام أشار إلى أساليبه في إدارة الدولة والمحافظة على التمكين، وأهم هذا الفقه يظهر في النقاط الآتية:

ا ـ دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، فهذا كان حال سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ [النمل: 20] وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة فيها وخاصة الضعفاء[1].

ولا شك أن القيادة تحتاج إلى لجان ومؤسسات وأجهزة حتى تستطيع أن تقوم بهذه المهمة العظيمة. إن سليمان عليه السلام كان مهتماً بمتابعة الجند وأصحاب الأعمال وخاصة إذا راب شيء في أحوالهم، فسليمان عليه السلام لما لم ير الهدهد بادر بالسؤال ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ يعني «أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له»[2] ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: 20] سؤال آخر ينم عن حزم في السؤال بعد الترفق، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقة فقط ولكن عن جد وشدة، إذا لم يكن الغيب بعذر[3].

2 ـ لابد للدولة من قوانين حتى تضبط الأمور بحيث يعاقب المسيء، ويحسن للمحسن، ولا بد من مراعاة التدرج في تقرير العقوبة، وأن تكون على قدر الخطإ وحجم الجرم، وهذا عين العدالة، ولهذا لم يقطع سليمان عليه السلام بقرار واحد في العقاب عند ثبوت الخطإ، بل جعله متوقفاً على حجم الخطإ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ...﴾ [النمل: 21] وقد استدل أهل العلم بهذه الآية على أن العقاب على قدر الذنب، وعلى الترقي من الشدة إلى الأشد بقدر ما يحتاجه إلى إصلاح الخلل[4].

3 ـ لا بد للدولة المسلمة أن تهتم بالأجهزة الأمنية وتحرص أشد الحرص على الاهتمام بالأخبار والمعلومات حتى توظف لخدمة الدين، وعقيدة التوحيد، ونشر المبادئ السامية، والأهداف النّبيلة، والمثل العليا، وأن تحرص على تحبيب الجهاد لأبنائها بواسطة الأجهزة

(1) انظر: تفسير القرطبي (13/ 177).
(2) تفسير الرازي (24/ 189).
(3) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 593).
(4) المصدر نفسه.

الإعلامية والوسائل التربوية، وأن تهيئ النفوس للظروف المناسبة لإقامتها للدين وإعلاء لكلمة الله، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام ـ كما قال القرطبي ـ رحمه الله : «فإنما صار صدق الهدهد عذراً له؛ لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد»[1].

4 ـ لابد للقيادة في الدولة المسلمة أن تهتم بنصر دعوة التوحيد، وبذل الوسع في تبليغها لكل مكلف، فإن سليمان عليه السلام لما استمع إلى خبر القوم المشركين، شمّر عن ساعد الجد في إيصال البلاغ إليهم، وبدأ معهم بالحجة والبيان: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: 28]. قال القرطبي ـ رحمه الله : «في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار»[2].

ومن المهم عرض الدعوة بعزة الإسلام وبشرف الإيمان وهيبة القرآن لا بتذلل واستخذاء، وعدم مداراة للناس في أمر الاستجابة لله، وترك مداهنتهم فيما يغضب الله. ولقد كان كتاب سليمان عليه السلام لملكة سبأ يبدأ بالرحمة، وتتخلله الكرامة، وآخره الدعوة إلى الاستجابة لله والاستسلام له سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: 30 ـ 31].

وعلى الدولة المسلمة أن تهتم بتعظيم اسم الله تعالى، والتشرف بذكره في المحافل والمناسبات والكتابات، فهذا شعار المؤمنين، وتنزيه هذا الاسم المقدس عما لا يليق به، والحفاظ عليه من جهل الجهال ولذلك قدم سليمان عليه السلام اسمه، خوفاً من أن تتلفظ ملكة سبأ بكلمة لا تليق ـ فيكون اسمه وقاية لاسم الله عز وجل[3].

وعلى الدولة المسلمة أن يكون خطابها الدعوي ملتزماً بالجدية في دعوة الناس وأن تراعي شمولية الإسلام، وتتوخى الاقتصار على المقصود منها، وهكذا كان خطاب سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

[النمل: 30 ـ 31]

فالمطلوب من الخلق: العلم والعمل، والعلم مقدم على العمل، فقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مشتمل على إثبات الصانع سبحانه وتعالى وإثبات صفاته سبحانه،

(1) تفسير القرطبي (13/ 189).
(2) المصدر نفسه (13/ 190).
(3) المصدر نفسه (2/ 594).

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ نهي عن الانقياد لغير الله ﷻ اتباعاً للهوى أو طاعة للنفس، وقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فيه الحث على الإيمان بالقلب والإسلام بالجوارح[1].

وعلى القائمين بأمر الدعوة إلى الله أن يكونوا متعالين على حطام الدنيا، فعندما تعرض عليهم رشوة في الدين، أو رهاناً على المبدأ، ليكون الشعار ما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

[النمل: 36].

فملكة سبأ عندما عملت الحيلة لاختبار سليمان عليه السلام، وتفتق ذهنها عن بعث هدية له تمتحن بها حبه للدين، فأظهر عليه السلام عدم الاكتراث بهذا المال، وأعلم من جاؤوا به أن الله تعالى آتاه الدين الذي هو السعادة القصوى، وآتاه من الدنيا ما لا مزيد عليه، فكيف يستمال مثله بمثل هذه الهدية، وصارحهم بأنهم هم الذين من شأنهم الفرح بتلك الهدية التي ظنوا أنه سيفرح بها أما هو فلن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف[2].

5 ـ المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب للمكان المناسب وعدم التردد في القرار الصعب للتغلب على الحال الأصعب، فعندما وجد سليمان عليه السلام، أن القوم ما زالوا على الشرك، بل يريدون استمالته وتنحيته عن صلابته في الحق قال للوفد الذي جاء بالهدية: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

[النمل: 37].

ولا مانع من ركوب الشدة مع المعاند، واستعمال القوة في إرهاب من يصد عن الدعوة فإن ذلك قد لاينفع غيره في إنقاذ الناس من الشرك، بل من المعادن البشرية ما لا يلين إلا تحت وهج السيف وسنابك الخيل، وكان هذا الأسلوب سبباً في إسلام ملكة سبأ وانقيادها وجنودها لسليمان عليه السلام ولا مانع من استعمال الذكاء والعقل النير، ودقة التدبير، في استجلاب قلوب المدعوين إلى الدين واستخدام نعم الله في دلالة الخلق على الله، ومخاطبة الناس بالكيفية التي تستهوي قلوب عوامهم وتجلب احترام خواصهم، فسليمان عليه السلام لما بلغه خبر مجيء ملكة سبأ في جمع من حاشيتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى ما أعطاه الله من قوة حتى أن عرشها الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثيف يسبقها إليه[3].

(1) انظر: روح المعاني للآلوسي (24/ 195).
(2) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 598).
(3) المصدر نفسه (9/ 193).

6 ـ وعلى الدولة المسلمة أن تستفيد من المهارات والمواهب وإمكانات الخاصة في أفراد الرعية، ووضع الفرد المناسب في مكانه الصحيح. إن مملكة سليمان عليه السلام كان فيها من الإنس والجن وغيرهم ما كان يمكن أن يؤدي مهمة الهدهد، ولكن سليمان عليه السلام اختاره مع ضعفه وصغره لتأدية هذه المهمة، فـ «تخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف؛ لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة»[1].

د ـ أبرز صفات سليمان عليه السلام كحاكم لدولة:

إن الآيات الكريمة عرضت صفات سليمان عليه السلام كملك وحاكم ممكن له في الأرض وفي هذا إشارة من الله تعالى إلى الصفات القيادية المطلوبة للإشراف على تمكين شرع الله تعالى:

1 ـ الحزم: ويظهر ذلك عند القيادة إن غلب الظن أن هناك تقصيراً، أو تكاسلاً عن الحضور وقت الطلب أو التأخر وقت العمل: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: 21] فإنه قد تبين لسليمان عليه السلام أن الهدهد غائب، فتهدد بذلك أمام الجمع الذي يعلم أن الهدهد غائب، حتى لا يكون غيابه ـ إن لم يؤخذ بالحزم ـ سابقة سيئة لبقية الجند[2].

2 ـ التريث والتأني قبل الحكم، فلعل للغائب عذراً، أو للمقصر حجة تدفع الإثم، وترفع العقوبة، ولهذا قال سليمان بعدها: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: 21] أي «بحجة تبين عذره في غيبته»[3] وهذا هو اللائق بالحاكم والقاضي إذا كان عادلاً، وسليمان عليه السلام الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، لا ينتظر منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة ولا يبادر إلى المؤاخذة قبل سماع الحجة.

3 ـ سعة الصدر في الاستماع إلى اعتذار المعتذر، وحجة المتخلف، وسليمان عليه السلام أنصت لاسترسال الهدهد حتى انتهى من قوله، على الرغم من أن فيه نوع معاتبة لسليمان، وفيه نسبة عدم الإحاطة إليه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ

(1) تفسير روح المعاني (9/ 193).
(2) انظر: في ظلال القرآن (5/ 2638).
(3) تفسير القرطبي (13/ 180).

لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: 22 ـ 26]. كل هذا وسليمان لا يقاطعه، ولايكذبه، ولايعنفه، حتى ينتهي من سرد الحجة، التي كانت مفاجأة ضخمة لسليمان عليه السلام.

4 ـ قبول الاعتذار ممن يعتذر في الظاهر، وإيكال سريرته إلى الله تعالى، فسليمان عليه السلام سكت عن المؤاخذة وانتقل إلى تحري الخبر: قال القرطبي ـ رحمه الله: «هذا دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه»[1].

5 ـ التروي في تصديق الخبر؛ فهذا الذي حكاه الهدهد، أمر ليس بالسهل ولا باليسير، ثم إن الهدهد لا يجرؤ على اختلاق هذه القصة الطويلة، وهو يعلم تمكن سليمان من الرعية، ومقدرته على التأكد من صحة الأخبار، ومع ذلك لم يبادر عليه السلام إلى التصديق، كما أنه لم يتعجل التكذيب، بل قال: ﴿سَنَنظُرُ﴾ وهو من النظر، أو التأمل والتحري»[2]، وقوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: 27]. يعني أصدقت في خبرك أم كذبت لتتخلص من الوعيد[3].

6 ـ عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، وإسناد الفضل إلى الله في كل نعمة، وتجديد الشكر على هذه النعم، وسليمان عليه السلام لما طلب الإتيان بعرش بلقيس أجابته جنوده التي سخرها الله له مسارعين إلى الطاعة؛ فلما وجد سليمان طلبه مجاباً، وأمره مطاعاً سارع إلى ضبط النفس في سلك الخشية ومنهاج التواضع والطاعة لله رب العالمين ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل: 40] أي رأى العرش ثابتاً عنده: ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي هذا النصر والتمكين من فضل ربي ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها، فإن من شكر لايرجع نفع شكره إلا إلى نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد، ومن كفر النعم فإن الله غني عن شكره، كريم في عدم منع تفضله عنه[4].

7 ـ التواضع وهو في قمة المجد والتمكين: كان سليمان عليه السلام دائم التواضع حتى قيل: إنه كان يمشي منكسر الرأس خشوعاً لله، وأثناء استعراضه لجنوده من الجن والإنس والطير مر

(1) تفسير القرطبي (13/ 184).
(2) تفسير الرازي (24/ 193).
(3) تفسير ابن كثير (3/ 349).
(4) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 600).

على واد النمل، وفي نظرة التواضع إلى الأرض أبصر نملة، فأشخص النظر صوبها، وأصاخ السمع إليها، وبما علم من منطق الطير والحيوان حاول تفهم أمرها. لقد علم أنها تتخوف من بطش أقدام الجنود في ركب سليمان. لقد سمعها وفهم قولها: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 18]. نعم إنها كائن صغير في مملكة ضخمة عظيمة، تسعى كأخواتها للرزق، وتنصح لهم أن يفسحوا الطريق أمام ركب الملك العادل، حتى لا تقع مظلمة غير مقصودة من أحد منهم. قال القرطبي - رحمه الله -: «التفاتة مؤمن: أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنده لايحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا»[1].

إن هذه النملة لم تكن إلا واحدة من رعايا سليمان في مملكته التي ضمت إلى جانب الإنس والجن أنواعاً وألواناً من الحيوان والطير والهوام.

لقد سمع كلامها، وتفهم شكواها، فتبسم من قولها، فرقّ قلبه الكبير رفقاً لجرمها الصغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربه إذ علمه منطق هذه المخلوقات حتى يتمكن من إنصافها، وإيصال العدل إليها. وسُرّ بأن عدالته وجنوده قد عرفها كل مخلوق، حتى مثل هذه النملة التي اعتذرت عنهم مقدماً، بأنهم إن أصابوا نملة بأقدامهم، فإن ذلك من غير قصد منهم ولا شعور[2].

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ...﴾ [النمل: 19].

لقد أدرك سليمان عليه السلام أنه - في جنب الله - في حاجة إلى الرحمة والعطف واللطف أشد من حاجة هذه النملة إلى ذلك منه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19].

(1) تفسير القرطبي (13/ 170).

(2) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 589).

المبحث الثاني
فقه التمكين عند ذي القرنين

أولاً: من هو ذو القرنين؟

اختلف المفسرون في اسم ذي القرنين ونسبه وزمان وجوده وسبب تلقيبه بذي القرنين، لقد تضاربت أقوالهم وآراؤهم، وتعارضت أدلتهم واعتمد الكثير منهم على الإسرائيليات والخرافات والأساطير، والروايات الواهية، والأخبار الكاذبة.

وعندما طالعت الكتب التي تحدثت عن ذي القرنين[1] خرجت بنتيجة وهي: لا يمكننا الجزم بتحديد شخصية ذي القرنين، ولا تحديد رحلاته الثلاث التي أشار إليها القرآن الكريم، ولا تحديد السد الذي بناه على الكرة الأرضية.

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لم يتعرضا إلى تلك التفصيلات، وبما أنهما سكتا عن المعلومات التفصيلية، فلا دلالة يقينية عليها.

ولذلك يكون كلام المفسرين وأهل التاريخ والعلماء عنها من باب الظن وليس من باب الجزم[2].

لقد قالوا: إن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني اليوناني؛ وذلك لأن البلاد التي استولى عليها الاسكندر امتدت إلى مشارق الأرض ومغاربها وقيل: هو قورش الإخميني، لإجماع المؤرخين على عدالته وحسن سيرته في الشعوب والممالك التي استولى عليها، وقيل: إنه أبو كرب شمر بن عمرو الحميري.

لقد ناقش الأستاذ محمد خير رمضان يوسف الأقوال السابقة وخرج بنتيجة: إن ذا

---

(1) انظر: ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح لمحمد خير رمضان.

(2) انظر: مع قصص السابقين في القرآن للخالدي (6/ 254، 255).

القرنين، لم يكن واحداً من هؤلاء الثلاثة ونقد الآراء السابقة نقداً علمياً متيناً ووصل إلى: «أنه ذو القرنين القرآني الذي ذكره الله ﷻ في كتابه العزيز، وأثنى عليه بالإيمان والإصلاح والعدل، في سورة قرآنية عظيمة، وآيات إعجازية جليلة، وقصة تاريخية نادرة، ملأى بالدروس والعبر، طافحة بالعظات والمبادئ والحكم.

إنه علم قرآني بارز... خلَّد الله ذكره في كتابه الخالد، فاستحق أن ينال لقب القرآني وكفى، ولم أشأ أن أقول غير هذا؛ لأنني لم أر من أعطي شخصية ذي القرنين حظها في التاريخ مثلما أعطى لها الله ـ ﷻ ـ في كتابه العظيم، إنه الرجل الطواف في الأرض، الصالح العادل الخاشع لربه، والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح. والذي ملك أقاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغره مال ولا منصب، ولا جاه، ولا قوة، ولا سلطان، بل إنه بقي ذاكراً لفضل ربه ورحمته، متأهباً لليوم الآخر، ليلقى جزاءه العادل عند ربه.

ويكفي أن يبقى ذو القرنين تلك الشخصية العظيمة في التاريخ، وذلك العلم البارز في العدل والإصلاح والقيادة، ومثال الحاكم الصالح على مر التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشهادة الكتاب الخالد»[1].

إن القرآن الكريم اهتم بإخراج القيم الصحيحة في سيرة ذي القرنين وأعماله وأقواله مثل:

1 ـ الحكم والسلطان والتمكين في الأرض ينبغي أن يسخر لتنفيذ شرع الله في الأرض وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين ومنع الفساد والظلم وحماية الضعفاء من بطش المفسدين.

2 ـ الرجال الأشداء ذوو الخبرات الفنية العالية في النواحي العسكرية والعمرانية والاقتصادية الذين كانوا طوع بنان ذي القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له وفتح الخزائن أمامه وتقديم خراج الشعوب له طواعية، كل ذلك لم يدخل في نفسه الغرور والبطر والطيش والغواية، بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا.

3 ـ الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات التي سعى إليها حيث آتاه الله من كل شيء سبباً فأتبع سبباً.

إن القرآن الكريم في قصة ذي القرنين وفي كل قصصه ركز على الدروس والعبر والحكم والسنن ولم يهتم بكثير من القضايا التي لاتنفع الإنسان؛ ولذلك نجد في قصة ذي القرنين

(1) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح (247 ـ 249).

كثيراً من المبهمات التي لا تفيد القارئ مثل: من هو ذو القرنين؟ وما هي شخصيته؟ وما هي حياته؟ وما هو الزمن الذي عاش فيه، والدولة التي حكمها، والحروب التي خاضها، والبلاد التي فتحها، ورحلته الأولى تجاه الغرب، وتحديد المنطقة التي وصل إليها، وتحديد المكان ذي العين الحمئة؟ وكيف وجد الشمس تغرب فيها؟ وأصل يأجوج ومأجوج، وتاريخهم، ومناطق سكنهم وإقامتهم بالضبط وغير ذلك من التساؤلات[1].

ثانياً: معالم التمكين عند ذي القرنين:

أ ـ دستوره العادل:

إن المنهجية التي سار عليها ذو القرنين كحاكم مؤمن جعلته يلتزم بمعاني العدل المطلق في كل أحواله وسكناته ولذلك سار في الناس والأمم والشعوب التي حكمها بسيرة العدل، فلم يعامل الأقوام التي تغلب عليها في حروبه بالظلم والجور والتعسف والتجبر والطغيان والبطش وإنما عاملهم بهذا المنهج الرباني: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: 87 ـ 88].

وهذا المنهج الرباني الذي سار عليه يدل على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عدله ورحمته؛ لأن الناس الذين قهرهم وفتح بلادهم، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعاً معاملة واحدة؛ فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح ومنهم الطالح، فهل يتساوون في المعاملة؟ قال ذو القرنين: أما الظالم الكافر فسوف نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبة له؛ فنحن عادلون في تعذيبه في الدنيا، ثم مرده إلى خالقه لينال عذابه الأخروي.

إن الظالم والباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذّب مرتين؛ مرة في الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذاباً نكراً، أما المؤمن الصالح فإنه مقرب من ذي القرنين، يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة، ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبر وموّدة[2]، لقد كان ميزان العدالة في حكمه بين الناس هو التقوى والإيمان والعمل الصالح، ودائما يتطلع إلى مقامات الإحسان.

---

(1) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (6/ 242، 244).

(2) المصدر نفسه (2/ 330، 331).

ب ـ منهجه التربوي في الشعوب:

إن الله تعالى أوجب العقوبة الدنيوية على من ارتكب الفساد في المجتمع وكلف أهل الإيمان ممن مكن لهم في الأرض أن يحرصوا على تنفيذ العقوبات للمفسد والظالم لكي تستقيم الحياة في الدنيا.

إن ذا القرنين يقدم لكل مسؤول أو حاكم أو قائد منهجاً أساسياً، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعي بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى. قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «وهذا دستور الحاكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير، والجزاء الحسن عند الحاكم. والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء.. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً أو مكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة. عندئذ يجدون ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج. أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم، مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد»[1].

إن التربية العملية للقيادة الراشدة هي التي تجعل الحوافز المشجعات هدية للمحسن ليزداد في إحسانه وتفجر طاقة الخير العاملة على زيادة الإحسان وتشعره بالاحترام والتقدير وتأخذ على يد المسيء لتضرب على يده، حتى يترك الإساءة وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان في أوساط المجتمع وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حد وفق قانون الثواب والعقاب المستمد من الواحد الديان.

جـ ـ اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير:

نلاحظ من الآيات القرآنية أن ذا القرنين وظّف علوماً عدة في دولته القوية ومن أهم هذه العلوم:

1 ـ علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض، وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها وسهولها؛ لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، ولا يخلو الأمر أن يكون في جيشه متخصص في هذا المجال[2].

---

(1) في ظلال القرآن (4/ 1922).

(2) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

2 ـ كان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره، يدل على ذلك حسن اختياره للخامات، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف الإمكانات على خير ما أتيح له: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: 96]. أمرهم بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فأتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً حتى جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو ثم قال للعمال: «انفخوا بالكير في القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين»[1]. فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة، قال للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: (آتوني نحاساً مذاباً أفرغه عليه فيصير مضاعف القوة والصلابة)، وهي طريقة استخدمت حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته[2].

3 ـ كان واقعياً في قياسه للأمور وتدبيره لها، فقد قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاج إليه من علاج، فلم يجعل السور من الحجارة، فضلاً عن الطين واللبن، حتى لا يعود منهاراً لأدنى عارض، أو في أول هجوم، ولهذا باءت محاولات القوم المفسدين بالفشل عندما حاولوا التغلب على ما قهرهم به ذو القرنين: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97]. أي لم يتمكنوا من اعتلائه لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن يثقبوه لصلابته وثخانته[3].

لقد كان ذو القرنين على علم بأخبار الغيب التي جاءت بها الشرائع؛ ومع ذلك لم يتخذ من الأقدار تكئة لتبرير القعود والهوان، فقد بنى السد وبذل فيه الجهد، مع علمه بأن له أجلاً سوف ينهدم فيه لا يعلمه إلا الله.

ثالثاً: أخلاقه القيادية وفقهه في إحياء الشعوب:

أ ـ أخلاقه القيادية:

إن شخصية ذي القرنين تميزت بأخلاق رفيعة ساعدته على تحقيق رسالته الدعوية، والجهادية في الحياة ومن أهم هذه الأخلاق:

(1) روح المعاني (16/ 40)
(2) انظر: في ظلال القرآن (4/ 2293).
(3) فتح القدير (3/ 313).

1 ـ الصبر: كان جلداً صابراً على مشاق الرحلات، فمثلاً تلك الحملات التي كان يقوم بها تحتاج إلى جهود جبارة في التنظيم والنقل والتحرك والتأمين، فالأعمال التي كان يعملها تحتاج إلى جيوش ضخمة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم وآلات ضخمة وأسباب معينة على الفتح والنصر والتملك[1].

2 ـ كانت له مهابة ونجابة يستشعرها من يراه لأول مرة، ولكنها ليست مهابة الملوك الظلمة الجبارين فعندما بلغ بين السدين ووجد القوم المستضعفين، استأنسوا به، ووجدوا فيه مخلّصاً من الظلم والقهر الواقع عليهم فبادروه بسؤال المعونة، فمن الذي أدراهم بأنه لن يكون مفسداً مثل المفسدين أو الظالمين، ومعه من القوة والعدة ما ليس لمثلهم[2].

3 ـ الشجاعة: كان قوى القلب جسوراً غير هياب من التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة إذا كان في ذلك مرضاة الله سبحانه، فإن ما طلب من إقامة السد كان عملاً عظيماً في ذاته، حيث أن القوم المفسدين كان من الممكن أن يوجهوا إفسادهم إليه وإلى جنوده، ولكنه أقدم وأقبل غير متأخر ولا مدبر[3].

4 ـ التوازن في شخصيته: فلم تعكر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها ـ وقد سخرت له ـ كافية لإثنائه عن تواضعه وطهارته وعفته.

5 ـ كثير الشكر: لأنه كان صاحب قلب حي موصول بالله تعالى، فلم تسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه[4] سبحانه وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: 98].

6 ـ كان عفيفاً مترفعاً عن مال لا يحتاجه، ومتاع لا ينفعه، فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخراج، «فأجابهم بعفة وديانة وصلاح: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، وما أنا فيه خير من الذي تبذلونه»[5].

---

(1) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).
(2) المصدر السابق (2/ 624)
(3) المصدر السابق.
(4) المصدر نفسه (2/ 627).
(5) انظر: المصدر نفسه (2/ 625).

إن مفتاح شخصية ذي القرنين تتمثل في إيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان، وحبه العميق للدعوة إلى الله، يظهر ذلك جلياً في شخصية ذي القرنين عند قوله تعالى: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: 95] وقوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: 87] وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98] وهذه المواضع التي صرَّح فيها بأنه كان مؤمناً بالله واليوم الآخر يستفاد منها أمور:

* إن الثناء على الحاكم لا يكون بمجرد شجاعة أو فتوح أو عمارة، ما لم ينضم إليها الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن هناك حكاماً كثيرين كانت لهم من الإصلاحات الدنيوية المجردة ما يعتبرهم الناس من أجله عظماء، ومع ذلك لم يورد القرآن لهم ذكراً حسناً، بل جاء في القرآن ذم حكام عمروا في الدنيا كثيراً، ولكنهم خربوا أديان الناس، وأفسدوا عليهم آخرتهم مثل فرعون وهامان والنمرود وغيرهم.

* إن التوازن المدهش والخلاب في شخصية ذي القرنين سببه إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولاغناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده الصالح، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار[1]. وكذلك أكرمه بكثرة الأعوان والجنود وقذف الرعب في قلوب الأعداء وتسهيل السير عليه، وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها[2]. وتمكنه بذلك من تملك المشارق والمغارب من الأرض، فكل هذه الأمور لا تعطى لشخص عادي، ولا يمكن أن يحققها حاكم بحوله وقوته وذكائه مهما بلغ، إلا أن يكون مؤيداً من الله، ذلك التأييد الذي ينصر الله به عباده المؤمنين. ويدل على هذه العناية أيضاً ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84] أي: أمده بكل ما أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه، فزوده بعلم منازل الأرض وأعلامها وعرفه ألسنة الأقوام الذين كان يغزوهم، فكان لايغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم[3]. لقد أعطاه الله تعالى من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض، وأسبابه من العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً، وفي

(1) انظر: روح المعاني (16/ 30).
(2) انظر: البحر المحيط (6/ 159).
(3) انظر: روح المعاني (16/ 31).

سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً، وأعطاه من أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر، وأسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة. وقيل: ومهما تصور من أسباب التمكين التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض[1] يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84]. لقد كانت رعاية الله تعالى لذي القرنين عظيمة بسبب إيمانه بالله تعالى واستعداده لليوم الآخر، ولذلك فتح له باب التوفيق وفق ما سعى إليه من أهداف وغاية سامية.

لقد بذل ذو القرنين ما في وسعه من أجل دعوة الناس إلى عبادة الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمة أو شعب دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العقاب أو الثواب، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة في الأرض شرقاً وغرباً، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران[2].

ب ـ فقهه في إحياء الشعوب:

إن حركة ذي القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحتك بالشعوب والأمم وتكلم القرآن الكريم عن رحلاته الإيمانية:

1 ـ الرحلة الأولى:

لم يحدد القرآن الكريم نقطة الانطلاق فيها وحدد النهاية إلى مغرب الشمس، ووجد عندها قوماً، فدعاهم إلى الله تعالى، وسار فيهم بسيرة العدل والإصلاح، قال تعالى: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: 87 ـ 88]

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب في قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره.

---

(1) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم، ص 304.

(2) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (623/2)

أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى.

ولم يعين السياق القومَ الذين اتخذ فيهم ذو القرنين هذه السياسة الحكيمة، كما أهمل ذكر المدة التي مكثها بينهم والنتائج التي توصل إليها، وكان الأمر المفروغ منه أن تثمر هذه السيرة العادلة والمبادئ السامية حضارة ربانية وتقدماً وسعادة وطمأنينة، لذا لا داعي لذكرها والوقوف عندها[1].

2 ـ الرحلة الثانية:

وهي رحلة المشرق حيث يصل إلى مكان يبرز لعين الرائي أن الشمس تطلع من خلف الأفق، ولم يحدد السياق أهو بحر أم يابسة، إلا أن القوم الذين كانوا عند مطلع الشمس كانوا في أرض مكشوفة بحيث لايحجبهم عند شروقها مرتفعات جبلية أو أشجار سامقة، وذهب الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: 90] هي بلاد القطب الذي تكون فيه الشمس ستة شهور لاتغيب طوال هذه الشهور ولايوجد ظلام يستر الشمس في هذه الأماكن[2].

ونظراً لوضوح سياسة ذي القرنين في الشعوب التي تمكن منها، وهو الدستور المعلن في رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه، لأنها منهج حياة ودستور دولة مترامية الأطراف وسياسة أمم فهو ملتزم بها أينما حل أو ارتحل[3].

3 ـ الرحلة الثالثة:

تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر وسكان المنطقة، ومن حيث الأعمال التي قام بها، فلم يقتصر فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين، بل قام بعمل عمراني هائل. أما الأرض فوعرة المسالك، وأما السكان ـ وكأن وعورة الأرض قد أثرت في طبائعهم، وطريقة تخاطبهم مع غيرهم ـ ففي التفاهم والمخاطبة لايكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما في نفسه، ولا أن يفقه مايحدثه به غيره من غير بني قومه ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93]،

(1) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص 305.
(2) القصص القرآني في سورة الكهف، ص 87.
(3) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص 306.

إما في أسلوب التخاطب والتعامل ـ كما أسلفنا ـ وإما من التخلف الحضاري والبدائية في العادات والمفاهيم والمصطلحات. فلما وجدوا القوة في دولة ذي القرنين والعدل والصلاح في سيرته ـ وعدل السلطان يفتح أمامه القلوب قبل فتح الجيوش والأمصار ـ لجأوا إليه بحمايتهم من هجمات تلك القبائل الهمجية المفسدة، قبائل يأجوج ومأجوج التي كانت تشن عليهم هجماتهم من خلف الجبلين المتقابلين من الممر الضيق الذي بينهما وذلك بإقامة السد بين الصدفين، مقابل خراج يدفعونه إليه في أموالهم. ونظراً لأن القضية التي وضعها ذو القرنين نصب عينيه هي الإصلاح ومقاومة الفساد والشر، والحكم بالعدل بين الناس، ولم يكن همه جمع المال أو قصد العلو في الأرض بإذلال الشعوب، فقد رفض عرضهم، وتطوع بإقامة السد على أن يتطوعوا هم من جانبهم بتقديم الجهد البشري، فمنه الخبرة والتصميم والإشراف، وعليهم الطاقة العمالية والمواد الأولية المتوفرة في بلادهم[1]، ونلاحظ من السياق القرآني أن هؤلاء القوم اتصفوا بصفات منها:

1 ـ هم قوم متخلفون: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ...﴾ وهذا إمَّا معناه أنهم لا يفقهون لغة غيرهم من الأقوام الأخرى، لأنهم لم يطلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلقون على لغتهم فقط. وإمَّا معناه: إن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون ولا يتفاعلون معه، ولا يتفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاء وغلظة عندهم، أو لغفلة وسذاجة في طبيعتهم.

2 ـ هم قوم ضعفاء: ولذلك عجزوا عن صدّ هجمات يأجوج ومأجوج، والوقوف في وجههم، ومنع إفسادهم.

3 ـ هم قوم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم، ومقاومة المعتدين، ولذلك لجأوا إلى قوة أخرى خارجية، قوة ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

4 ـ هم قوم اتكاليون كسالى: لا يريدون أن يبذلوا جهداً ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليه حقها، أما هم فمستعدون لدفع المال له[2].

لقد كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي الجاد لنقلها من الجهل والتخلف والكسل والضعف إلى العلم والتقدم والنشاط والقوة، فكان يدير العمل بروح الجماعة، ويشترك بنفسه مع إشراك غيره، ويدل على ذلك ضمير المتكلم الذي يتقابل في تسلسل متتابع رفيع مع ضمير المخاطب في النظم القرآني الكريم مما يشير إلى روح

(1) مباحث في التفسير الموضوعي، ص 307.
(2) انظر: مع قصص السابقين (2/ 338).

الحماسة والحيوية والتعاون المشترك[1] ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف: 95 ـ 96]، لقد كان ذو القرنين حريصاً على مصلحة الناس، ناصحاً لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية، لما في ذلك من تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم[2]، ومن نصحه وإخلاصه لهم، أنه بذل ما في الوسع والخدمة أكثر مما كانوا يطلبون، فهم طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سداً، أما هو فقد وعد بأن يجعل بينهم ردماً، «والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجون»[3]. لقد عفَّ ذو القرنين عن أموال المستضعفين وشرع في تعليمهم النشاط، والعمل، والكسب، والسعي، فقال لهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95]. إن في هذه العبارة القرآنية معلماً بارزاً في تضافر الجهود، وتوحيد الطاقات، والقدرات، والقوى.

إن القيادة الحكيمة هي التي تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

إن أمتنا الإسلامية ملأى بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة، والأموال المهدرة، والأوقات المبدَّدة، والشباب الحيارى وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار والدول والبلاد لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف[4] ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

إن ذا القرنين لم يكن موقفه مع المستضعفين حمايتهم وإنما توريثهم أسباب القوة حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام المفسدين، لقد كان ذو القرنين يستطيع أن يبقى حتى يبدأ يأجوج ومأجوج في الهجوم. ثم يهاجم ويهزمهم، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك أن يظل في انتظار هجوم الظالم ولكن وظيفته منع وقوع الظلم.

---

(1) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 627).
(2) انظر: أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي (3/ 243).
(3) روح المعاني (16/ 0 4).
(4) انظر: مع قصص السابقين (2/ 342).

كيف منع ذو القرنين وقوع الظلم؟ لم يأت بجيوش لحماية المستضعفين مع قدرته على ذلك وإنما طلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم ويتعلموا فنون الحماية ويكسبوا خبرات، ويتدربوا على العمل الجاد والمثمر الذي يجعلهم يبنون السد بأيديهم، وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شيء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين. قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: «وهذه تلفتنا إلى أن عطاء الله سبحانه وتعالى، عطاء إمكانات، وعطاء ذاتي في النفس... عطاء الإمكانات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتي في النفس: هو القوة الذاتية في داخلك التي تعطيك طاقة العمل، وكثير منا لا يلتفت إلى عطاء النفس... لا يلتفت إلى أنه فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة، وأنه لا يستخدمها وأن لديه قوة تحمّل وبإمكانه أن ينتقل من مكان إلى آخر... وأن يعمل أعمالاً كثيرة».

هذه القوة معطلة عند عدد كبير من الناس، فهي غير مستخدمة، ويستطيع الرجل أن يفعل بها أشياء كثيرة وأمامه المجالات التي يستخدم فيها طاقته. ولكنه لا يستخدمها، عنده قوة تفكير لو دربها على العمل لفتحت له أبواب كثيرة يرتزق منها، ولكنه يبقيها كسولة فلاتفكر في شيء ولا يستخدمها لينميها.

ماذا فعل ذو القرنين؟

لم يستعن بجيشه ولا بأناس آخرين، إنما استعان بهؤلاء الضعفاء، لقد طلب منهم أن يأتوا بالحديد، ثم بناء السد بحيث وصل به إلى قمة الجبلين. ثم قام بصهر الحديد، وأفرغ عليه النحاس ليكون السد في غاية المتانة والقوة.

إذن فهو قوّى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج، . بأن علمهم كيف يعينون أنفسهم وكيف يبنون السد وجعلهم هم الذين يشتركون في البناء وهم الذين يقيمونه، وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط، ليأخذوا الثقة في أنفسهم بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم وليتعلموا ما يعينهم ويحميهم، والإسلام ينهانا عن أن نعوّد الناس على الكسل أو نعطيهم أجراً بلا عمل، لأن ذلك هو الذي يفسد المجتمع، فالإنسان متى تقاضى أجراً بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبداً[1].

إن ذا القرنين قام بمهمة الحاكم الممكن له في الأرض، فقوى المستضعف وجعله قادراً

(1) القصص القرآني في سورة الكهف، ص 93، 94.

على حماية نفسه من العدوان ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرجين بل نقلهم إلى ساحة الجد عاملين[1].

وهنا وقفة مهمة ودرس ضروري للأمة، وبخاصة في زمننا هذا، لأنها تواجه خطراً ماحقاً مدمراً، أشد وأقسى من يأجوج ومأجوج، إنه خطر الملاحدة واليهود والنصارى الذين يسعون لتدمير كيان الأمة وسلخها من هويتها وعقيدتها وإسلامها وجعلها عاجزة مكتوفة الأيدي أمام هذا الخطر، تستنجد وتستنكر وتشكو إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة، والدعوة إلى مؤتمر دولي.

إن القرآن الكريم يعلمنا ويرشدنا إلى طريق النجاة ألا وهو الالتزام بمنهج الله واتخاذ طريق العمل الصائب الصحيح، بالجهاد والقتال والقوة والعلوم المتطورة لكي تستحق الأمة رحمة الله، فعلى الأمة أن تدع الأماني والأحلام الخادعة، وعليها أن تدخل ميدان العمل والعطاء والجهاد والشهادة، فعندما تحرك القوم المستضعفون نحو العمل بقيادة ذي القرنين، وصلوا إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المطلوبة.

ونقف مع ذي القرنين بعد أن تمَّ بناء السد:

نظر ذو القرنين إلى سده العظيم الذي حفظ الناس من غارات المفسدين وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: 98]. إنها عبارة جميلة مباركة تشير إلى عدة معان:

1 ـ قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه...»[2].

2 ـ ذكر ذي القرنين لربه عند إنجاز عمله، يعلمنا كيف يكون ذكر الله سبحانه. إن من أعظم صور الذكر، هي أن يذكر العبد ربه عند توفيقه في عمل، فيستشعر أن هذا بأمر ربه، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

3 ـ كان بناء السد رحمة من الله تعالى، وقد استخدم ذو القرنين علمه الذي علمه الله إياه، وتمكينه الذي مكنه الله له، استخدمه في مساعدة الناس وتقديم الخير لهم، ومنع العدوان عنهم، فكان علمه رحمة من ربه، وكان استخدامه له رحمة من ربه.

---

(1) القصص القرآني في سورة الكهف، ص 95.

(2) في ظلال القرآن (4/ 2293).

4 ـ كان القوم مهدَّدين بيأجوج ومأجوج، معرضين لإفسادهم، ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد، فكان السد رحمة من الله لهم، وكان خلاصاً لهم وإنقاذاً بإذن الله، فلو لم يتم بناء السد، ولو بقي أولئك القوم يشتكون ويندبون، بدون عمل ولا جهد ولا حركة، لما أنقذوا أنفسهم من الخطر، لأن الإنقاذ لا يتم إلا بالعمل والجهد المتواصل وتكاتف الجهود والانقياد الطوعي للشعوب لشرع الله خلف القيادة الربانية[1].

5 ـ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98].

لقد أعلن ذو القرنين ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك عندما يحين وعد الله الذي لا يتخلف.

رابعاً: المفاهيم الحضارية والدروس والعبر:

أ ـ المفاهيم الحضارية:

إن الله تعالى أظهر في سيرة أحسن الملوك[2] (ذي القرنين) مفاهيم حضارية وجعل في سيرته دروساً لكل من أراد أن يحكم بالحق والعدل، من الحكام في الناس، فأرشد القرآن الكريم عباده إلى ركائز الحضارة الربانية التي تقوم على شرع الله وتحكيمه بين العباد، فمن أهم هذه الركائز: الإيمان، العدل، العمل، وإنها لصفات لابد منها حتى يستقيم أمر الشعوب، ويأمنوا بحق على أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأديانهم، وعقولهم.

فالإيمان بالله رباً يجعل الحاكم يحرص على أن يستقي أوامره وتشريعاته من منهج الله، الذي لا شطط فيه ولا خلاف، ولا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء، ويكون بعيداً كل البعد عن هواه، فلا يظلم ولا يبطر ولا يتحكم في رقاب الناس وأمنهم بدون وجه حق، والعدل لابد منه لأنه مركب النجاة، وأمان أهل الأرض، والثقة بين الراعي والرعية، والقائد والمقود والحاكم والمحكوم، وبالعمل والتعاون ينتشر العمران، وتعم الحضارة وفق منهج رب العالمين.

لقد بنى ذو القرنين حضارة ربانية معتمدة على ركائز الإيمان، والعلم والعدل والإصلاح مستهدفة بني الإنسان أينما حل وأقام، أو ارتحل إلى أي مكان، فقاد الدنيا بالإيمان

(1) انظر: مع قصص السابقين (2/ 350).
(2) انظر: مجموع الفتاوى (17/ 22).

والخير والفلاح، وعمل على تخليصها من أسر المادة الطاغية، وكذلك الكفر والشرك والإجرام.

وحرص على تربية جنوده وأتباعه على الخير والحق، ومحاربة الشر في النفوس، وأهم هذه الشرور: الظلم والعدوان والتسلط على الناس، ومحاولة استعبادهم واستغلالهم لتحقيق مصالح شخصية، فالانحطاط الأخلاقي أضر شيء بالحياة الإنسانية. إن الحضارة الربانية متكاملة، وقابلة للبناء في أي وقت كان فيه التزام بالمنهج الرباني وأحكامه، لأن المنهج الرباني وأحكامه فيه كل الخير من عناصر معنوية اعتقادية وروحية وأخلاقية وعلمية وإبداعية، وعناصر مادية تشمل التقدم العمراني والصناعي والزراعي والتجاري، وكذلك عناصر تنظيمية وتشريعية تنظم حياة الفرد والمجتمع والدولة، مرتبطاً بجميع جوانب الحضارة؛ ولذلك تخرج للوجود حضارة ربانية مؤمنة تتقدم لمصلحة البشرية ولنشر الهداية لتعميمها على العباد، وتسعى لبناء الرجال على أسس من العقيدة والأخلاق، والأفكار الصحيحة، والتصورات السليمة قبل بناء المباني وتجميل المدن، وصناعة الأسلحة.

وتتميز الحضارة الربانية بتكاملها وتوازنها وتناسقها، من الحاجات الجسمية والعقلية والروحية وتتطلع إلى التنافس الشريف، وإسعاد البشرية، وتكوين الشخصية الربانية التي تتحمل مسؤولياتها الحضارية.

إن سيرة ذي القرنين في قيادته الحضارية للبشرية في زمانه تعطينا صورة مشرقة للإنسان القوي المؤمن العالم، الذي يسخر كل إمكانات دولته وجنوده وأتباعه وعلومه ووسائله وأسبابه لتعزيز شرع الله وتمكين دينه وخدمة الإنسانية وإعلاء كلمة الله، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله[1] ولقد سار نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون من بعده، على المنوال نفسه والهدي الذي رسمه القرآن الكريم ولقد طبقوا قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]

إن الإيمان الراسخ، والعمل الصالح، والسيرة الفاضلة، والمقاصد الخيرة، والدعوة إلى الله وإلى الحق واستخدام كل ما أوتينا من علم وحكمة يصنع الحضارة الربانية التي قاعدتها العقيدة الصحيحة، والتي تنبثق منها مبادئ وقيم وأخلاق ربانية تسعد من دخل في منهجها في الدنيا والآخرة.

---

(1) انظر: ذو القرنين القائد الفاتح لمحمد خير رمضان، ص 390.

إن الحضارة الإنسانية الرفيعة تتحقق في ظل دين الإسلام، وبذلك نستطيع أن نعرف الحضارة الربانية بأنها: «تفاعل الأنشطة الإنسانية للجماعة الموحدة لخلافة الله في الأرض عبر الزمن، وضمن المفاهيم الإسلامية عن الحياة والكون والإنسان»[1].

وهذا التعريف يتسع ليضم بين جوانبه حلقات الحضارة الربانية المتعددة والتي بدأت مع فجر التاريخ عبر الأنبياء والرسل والمؤمنين بهم، حتى الحلقة الأوسع وهي الحلقة المبتدئة بعصر النبيّ ﷺ وماتبعه من تفاعلات وأحداث.

وهكذا تصبح الحضارة الربانية الحضارة العالمية، التي تضم بين أرجائها تفاعلات الأمم والشعوب المندرجة تحت شرع الله تعالى وتقبل في عضويتها العالم بأسره، أسوده وأصفره وأبيضه وفق المنهج الرباني وأحكامه.

وتسعى لخدمة الإنسان وإسعاده، ليكون مع سائر الأكوان المحيطة به في وحدة حضارية كونية تتسامى في تمجيد الله تعالى وفي تسبيح أصيل للخلاق العليم خالق الوجود كله[2]. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44].

إننا إذا تأملنا في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1 ـ 3]. لوجدناها بحق تمثل معنى الحضارة الربانية في مفاهيمها وعناصرها، فالسورة حوت عناصر الحضارة كلها بوضوح كامل: الإنسان، التجمع (صفة الجمع في السورة: الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الزمن، الصبغة، كما تضمنت التفاعل الحضاري المستمر بالعمل والتطبيق والتنفيذ للمبادئ والمفاهيم.

إن تعطيل العمل والتنفيذ للمبادئ يعطل الربانية ويجعلها في حالة توقف وانتظار بل في حالة تأخر وانحسار[3].

إن ذا القرنين ساهم في صناعة الحياة البشرية على أسس عقدية وأخلاق ربانية، وأكون قد أصبت الحقيقة إن قلت: وترك لنا معالم واضحة في التعامل مع نفسية الشعوب وتحريكها بالإيمان والعلم، والعمل، والعدل، والإصلاح، والتعمير.

---

(1) الإسلام والحضارة للندوة العالمية للشباب (1/ 490).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه (1/ 491).

ب ـ الدروس والعبر والحكم:

إن قصة ذي القرنين ملأى بالآيات والعبر والأحكام، والآداب والثمرات والفوائد، نذكر منها:

1 ـ الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً لما له من خفي الحكم وباهر القدرة، فلا إله سواه.

2 ـ الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل، وأن على قدر الجد يكون الفوز والظفر، فإن ما قصه الله علينا عن ذي القرنين من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس، ومطلعها وشمالها، وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار ثم إحرازه ذلك الفخار، الذي لا يشق له غبار، أكبر عبرة لأولي الأبصار.

3 ـ ومنها تنشيط الهمم لرفع العوائق، وأنه متى ما تيسرت الأسباب، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر، عذراً في الخمول والرضاء بالدون، بل ينبغي أن ينشط ويتمثل في مرارته حلاوة عقباه من الراحة والهناء.

4 ـ وجوب المبادرة إلى معالي الأمور.

5 ـ إن من قدر على أعدائه وتمكن منهم، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته.

6 ـ إن على الملك إذا اشتكي إليه جور مجاورين لبلاده، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن، دفاعاً عن الوطن العزيز، وصيانة للحرية والتمدن، من مخالب التوحش والخراب، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين.

7 ـ إن على الملك التعفف عن أموال رعيته، والزهد في أخذ أجره في مقابلة عمل يأتيه، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته.

8 ـ التحدث بنعمة الله إذا اقتضاه المقام.

9 ـ تدعيم الأسوار والحصون في الثغور وتقويتها على أسس علمية وفق دراسة ميدانية صحيحة، لتنتفع به الأجيال على مر العصور وكر الدهور.

10 ـ مشاركة الحاكم العمال في الأعمال، والإشراف بنفسه إذا تطلب الأمر، لكي تنشط الهمم.

11 ـ تذكير الغير وتعريفهم ثمار الأعمال المهمة لكي يستشعروا رحمة الله تعالى.

12 ـ استحضار القدوم على الله، واستشعار زوال هذه الدنيا والتطلع إلى ما عند الله.

13 ـ الاعتبار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار، حيث نجد أن الآيات الكريمة أوضحت أخلاق ذي القرنين الكريمة من شجاعة وعفة وعدل وحرص على توطيد الأمن والإحسان للمحسنين ومعاقبة الظالمين.

14 ـ الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة. كما كان يرمى إليه سعي ذي القرنين، فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب، ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بالمنهج الرباني والشرع السماوي[1].

وبهذا نقف عند الدروس والعبر والحكم من هذا القصص القرآني الكريم.

(1) انظر: تفسير الإمام القاسمي (11/ 87 ـ 90).